

ماركيز

الجزءُ الثَّانــي

الدكتور مزوار محمد سعيد

الدكتور مزوار محمد سعيد

جلس ماركيز يتأمَّل الحرب الباردة التي دارت رحاها بين الاتحاد السوفياتي من جهة والمنظومة الغربية من جهة مقابلة، قبل أن يكتشف تلك النقاط المختلفة التي تجعل مِن الفرق الواضح بين علامات الصراع أمرا بديهيا، حتَّى أنَّ العلاقة الوخيمة بين ارتدادات الصراع الأصلي بين موسكو وواشنطن قد بلغت بطريقة دموية أقطارا كانت بالأمس آمنة، بل تسودها المحبة الأخوية والعمق الثقافي الغزير.

وفي زحمة هذه الأفكار التي تبدوا للوهلة الأولى غاية في التوجس من الناحية الاستراتيجية، تذكَّر ماركيز أحد الأغبياء الذين يريدون القيام بنشر الخبث في محيطه، على طريقة الشياطين الذين يرتدون جلود الإنسانية، تذكَّر ذلك المكر الغبي الذي لا يخطئه أنفه الغريزي الملتهب، فراح يعيد الحسابات، وهو ينظر إلى المرآة التي تزيِّن واجهة الخزانة المنصوبة في غرفته.

تعلَّم الأستاذ ماركيز كيف يدافع عن نفسه أمام الأصدقاء قبل الأعداء، تعرَّف على فنون المواجهات أمام أيٍّ كان، حتى ولو كان روحه من أجل سلامة عقله وإرادته، وها هو يزاول هذه الفنون بإتقان؛ فعلى أرض القراصنة لابد للنبلاء على شاكلة ماركيز أن يلعبوا بأعصاب منافسيهم الذين لا يعرفون للنزاهة سبيلا، يقيمون في خلاياهم العميقة، ويقومون باستنزافهم حتى آخر رمق.

ماركيز محاربٌ على هذه الجبهة بامتياز، فاز حتى الآن في كافة المبارزات الفكرية التي دخلها إمَّا طوعا، وأغلبها دخلها مكرها، أدرك الكثير من فنون المراوغة والدوران، سار على حبال رقيقة كالبهلوان، وكان ينجو كلَّ مرَّة من السقوط في الهاوية، وهو متأكِّدٌ الآن كما كان واثقا دائما من نفسه، من أنَّه يلعب بالطريقة السليمة وعلى المكشوف، يلعب بفنيات مقاتل على الجبهة الفكرية.

طرد الأستاذ ماركيز كلَّ هذه الأفكار عندما قام من مكانه، التقط موزة وقشرها، بعدها راح يلتهمها بتلذذ، هو يحب مذاق فاكهة الموز منذ كان صبيا، ولا يزال يشتري هذه

الفاكهة ويتناولها بشغف بعيدا عن الأنظار، حتى يرضي لهفة عميقة في روحه، تجعله تنظر إلى الحياة من زوايا مختلفة.

يؤمن ماركيز بأنَّ مصارعة السفلة جزء من الحياة، لكنَّه عازم على القتال حتى النهاية، سلاحه الفتَّاك هو عقله الذي يعرف كيفية استخدامه جيِّدًا، هو يدرك أهمية أن ترسم تلك القيمة في أذهان القطيع، وهو على يقين بأنَّها صورة ستبقى حاضرة إلى الأبد، مثلما بقي القمر منيرا في كلِّ ليلة، حتى النهاية، لهذا هو لا يزال متمسكا بهدوئه الأسطوري، متمسكا بقدرته على إدارة المعارك وحسم الحروب، وهي ميزة النبلاء عموما أينما وُجدوا.

يعود ماركيز ليدفن جسمه تحت غطاء قطني أسود اللون، هو هدية من جدَّته كريستينا رحمها الله، حمل هاتفه النقال، وراح يقرأ الكثير من الكلمات على مواقع التواصل الاجتماعي، حول الإنسان فتنفجر إنسانيته، حول الإيمان فيضع إيمانه موضع تمحيص، وأحيانا يقرأ الكثير من آيات الكتاب المقدَّس، ليجد نفسه مبهورا بكلام الله تعالى.

دغدغت كلمات أحد الكتَّاب من القراصنة مشاعر الأستاذ ماركيز بعدما قرأ مقاله الأسبوعي، تحدَّث هذا الكاتب عن ضرورة تجاوز المشاعر المعادية للجلاَّدين في دعوة صريحة للعبودية وتمجيد الأصنام، وهذا ما أثار في نفسيته نوعا من الاشمئزاز، حتى أنَّ ذلك الكاتب الساذج قد ألحّ على الدفاع عن لغة المستعمِر المجرم لأرض القراصنة، وهنا شعر ماركيز ببعض القلق، ألقى بهاتفه جانبا، وراح يقرأ احدى الروايات العالمية مبحرا في سحر أسلوب كاتبها الذي وجده أكثر إقناعا، والذي استمد من خياله الأمر الثمين، ليسوغه في صور تراجيدية رائعة.

ألقى ماركيز بتلك الرواية أيضا، التفت حوله، قبل أن يعود للتفكير من جديد، هذه الديانة الخاصة التي أدمن طقوسها منذ زمن بعيد.

رَنَّ هاتف صوفيا باكرا هذا اليوم، فاستيقظت من نومها على عجل، وعندما شاهدت رقم أخيها على شاشة الهاتف، زاد اضطرابها، دون وعي منها فتحت الخط:

- صوفيا، مرحبا!

الدكتور مزوار محمد سعيد

- أهلا! كيف حالك وحال الجميع؟
- نحن بخير، كلُّ الأمور تسير على ما يرام، وكيف حالكِ أنتِ؟
- أنا بخير!
- لم نراكِ منذ زمن بعيد، لهذا أردت إعلامك بالجديد

قاطعته بلهفة؛

- وما الجديد عندكم؟
- إنها أمي
- ما بها أمي؟ هيا تكلم بلا مقدمات
- هي مريضة قليلا، تشتدُّ عليها الحمى ليلا، ومنذ أيام وهي لا تردد سوى اسمك، هي ترغب برؤيتك
- آهاااا، سأكون عندكم مساء

وقبل أن يتمكن الأخ من إتمام حديثه، قامت صوفيا بإغلاق الخط في وجهه، وقررت زيارة بيت العائلة ذلك اليوم بالتحديد.

بينما هي تجمع أشياءها لتستعد للسفر، كون أنَّ عاصمة بلاد القراصنة تبعد بعشرات الكيلومترات عن مدينتها التي احتضنت صغرها والمراهقة التي كانت مميزة بالنسبة لها، تذكَّرت أمها، المرأة التي عملت بجهد حاملة أعباء فوق طاقتها لسنوات، ولم تبخل عليها بأيِّ شيء في سبيل إيصالها إلى ما هي عليه اليوم، صوفيا المرأة القوية والمقاتلة العنيدة في سبيل نيل مرادها من الحياة.

أخذت حماما بسرعة، ارتدت ثيابها، لم تكترث لعدم وضع مساحيق التجميل، بل إنها اكتفت بالقليل منها لجعل مظهرها يبدو مقبولا، ثم نزلت من شقتها باتجاه الشارع بحثا عن سيارة أجرة، وهذا ما تمَّ قبل أن تستقل الطائرة بحجز احتياطي، وها هي الآن تحلق عاليا.

بعد ساعة كاملة من الزمن، حطت الطائرة على مطار تلك المدينة النائية الصامتة، ذات الأسرار العميقة، وبعد المعاملات الإدارية الملتوية والمرهقة، تمكنت من شق طريقها نحو البيت العائلي، ولكنَّها بقيت على طول الطريق تحدِّقُ في بنايات مدينة طفولتها،

الدكتور مزوار محمد سعيد

فعلا! لا شيء تغيَّر فيها، وكأنها لم تغادرها أبدا، رغم أنَّها قد تركتها منذ ما يتجاوز العشر سنوات، منذ آخر زيارة لها للبيت، والتي انتهت بشجار مع كبير إخوتها، لترحل وهي عازمة على عدم العودة مهما تكن الظروف، لكن، صوت أخيها الصغير، وهو يخبرها بحالة أمها المزرية على الهاتف، هذا الصوتُ الطفولي الذي يحمل بين ثناياه الكثير من البراءة والحنين، جعلها تعقد العزم على كسر تلك العزيمة التي جعلتها تبقى بعيدة عن موطنها الأوَّل لسنوات، حتى دون أن تفتنها الذكريات، أو تشدها الأشواق إلى ربوع طفولتها الرقيقة، التي ذابت كأجنحة عباس بن فرناس يوم حاول الطيران، مبقية على أحلام لطالما كانت ملجأ قبل أن تكون مولدات أمل.

وصلت إلى بيتها الذي رأته أوَّل مرة بعد ولادتها مباشرة، والذي شهد أولى صرخاتها، أولى ضحكاتها وأولى خطواتها على طريق الحياة، وقفت للحظة وهي تتأمَّل الباب الذي صار لونه يتخذ من السواد عنوانا، ثم جالت بعيونها البنيتيْن عبر كافة ما يحيط بها، بينما كان سائق سيارة الأجرة ينزل أغراضها عن السيارة، سلمته أجرته، وأكملت تأملاتها، قبل أن تدقَّ الباب وهي ترتجف من الحنين، فقد غمرتها مشاعر مختلطة، هي لا تحب هذا البيت، لأنَّه شهد أهمَّ وأكبر مآسيها، ولهذا السبب تركته، غير مأسوف عليه رحلت عنه، ولكنها من جهة مقابلة، هي ترغب بدخوله والبقاء بين جدرانه ما بقي لها من أيام على قيد الحياة، فُتِح الباب وإذا بشيخ هرم يقول: مَن أنتِ يا ابنتي؟

- أنا صوفيا، جئت أطمئن على أمي...
- صوفيا؟؟

وشرع الشيخ في البكاء بكاء يجعل الشمس تنسحب من السماء، الحجر يتفتت حتى يصبح رملا والأموات يصرخون في حضرة الأحياء: كم أنتم قساة القلوب يا بني البشر!! قساة للغاية.

يومٌ خريفيٌّ ممطر، يجلس ماركيز مع زميل له إلى طاولة الغداء، وأخذ يأكل بشراهة شطائر البيتزا على الطريقة الإغريقية القديمة، بينما راح ذلك الزميل الممتع والمرح، يسرد على مسامعه حكايات عن طرائف تواجههم معا في العمل، لأنَّه مِن الصَّعب أن

تكون أستاذا في مدرسة للقراصنة، زعيمها قرصان بعَصابة سوداء، وصغارها كلّهم هُم أبناء القراصنة الأوفياء لجنسهم المقدَّس.

أمضى ماركيز وقت الظهيرة وهو يسامر زميله، وبينما كانا يتحدثان عن مواضيع من كثرة تكرارها في الحياة على أرض القراصنة، قد صارت مستهلكة حدَّ الملل، تحدثا عن العمل، الزواج وبعض المغامرات المضحكة، والممتعة حدَّ المجون، لطالما أسعدت هذه الجلسات الأستاذ ماركيز، لأنَّها تجعله يلبي نداء عميقا في ذاته، ويعيش لحظات جميلة في واقعه، رغم معرفته التامة بها، إلاَّ أنَّه يرغب أحيانا في اكتشافها من جديد.

بعدها استقلّ ماركيز سيارة زميله الفرنسية الصنع، وواصلا الحديث حتى موعد افتراقهما عند المحطة البرية للمدينة، أين نزل ماركيز بعدما ودَّع زميله بحرارة، وتوجه لركوب حافلة العودة إلى منزله الريفي الجميل، أين تنام الأفكار ويصحو الضمير، أين تغازل المعاني آخر جنود الفكر وترتفع المفاجآت إلى أقصى مستويات التفكير، هناك أين يجد ماركيز، كوب قهوة، سيجارته والكثير من الحكايات ليرويها لحاسوبه المحمول، أو هاتفه الجوّال، فتنتقل إلى أقصى أقاصي المعمورة.

بعد وصوله إلى المنزل تحت وابل من الأمطار الغزيرة، وجلوسه للسمر مع والديْه وأخته الصغرى، غزا ماركيز عالَمه مجددا، أخذ حماما ساخنا، وأدَّى واجبه الديني قبل أن ينهمك في كتابة أسطره الأسبوعية، لعلَّه يتمكَّن من إفراغ تلك الشحنات السلبية التي علقت بذهنه طيلة أسبوع من الزمن، شحنات اختلط فيها الاجتماعي بالثقافي، التربوي بالتعليمي، الأسلوب الراقي بالأساليب الماجنة، كلُّ هذا جعل ماركيز حذرا للغاية، ينساب كما تنساب الأفعى السوداء بين القش في ليلة ظلماء.

يُعلي ماركيز قيمة الوالديْن بشكل كبير، يرفع قيمتهم في خاطره لمستويات لا مجال لحدِّها، يرفعهم غالبا إلى مراتب القداسة، لأنَّه يعلم علم اليقين، بأنَّ ما قدَّماه له يتجاوز كلَّ تقدير، والتضحيات التي قدَّماها من أجله تفوق الوصف، لهذا نجد أنَّ الأستاذ ماركيز هو مجرَّد طفل "كبير" الحجم في حضرة أمِّه وأبيه، يصبح مجرَّدًا من كلِّ الألقاب في حضور والدته، كما أنَّه يصير مخبولا مغلوبا على أمره عندما يوجِّه أبوه الحديث له، وهي قيم رائعة من القيم الثمينة التي احتفظ بها ماركيز في داخله بعناية.

الدكتور مزوار محمد سعيد

وكما للوالديْن قيمة عالية في حياة هذا الفيلسوف اللاتيني على أرض القراصنة، والمسمى بماركيز، فإنَّ للعائلة وهج الرِّفعة أيضا، إذْ لطالما ردَّد بأنَّه غير قادر على الوقوف في وجه إجماع العائلة على رأي ما أو قرار معيَّن، بل إنَّه دائما ما يفضِّل هجرته إلى أراض غريبة عنه، فقط حتى يتجنَّب الاصطدام بعائلته، إن ما هو اضطر لفعل ذلك، وهي قيمة لا تصدر سوى عن ابن بارٍّ لسلالة النبلاء الشرفاء.

هذه المواصفات هي نتيجة طبيعية لفتى مثل ماركيز، ولد على الجنَّة ما وراء البحر، ونما وترعرع بين جنبات وأحراش أرض تكسر الأيقونات كما يكسر المنشار الجليد، كما أنَّه من سلالة الهنود الحمر، السكان الأصليين لأرض القراصنة، فكيف لا يتخذ من العائلة ملجأ ومِن الوالديْن مستقرات ومفاصل لعمليات حياته الحاسمة، هنا وفي هذه المواضيع فقط، تظهر طينة الرجال الفعلية، أين يجدُّ الجد، وتسرد أجمل الحسناوات أحلى الحكايات على مسامع الأجيال والأزمان، فتقول لهم: كان هناك رجُلٌ يدعى ماركيز، لم يحترم أيَّ فرد كما احترم العائلة، ولم يقدِّس أحدا كما قدَّس والديْه، ولم يرفع من شأن مخلوق، كما رفع مِن شأن نفسه، هنا ولد أوَّل وآخر بني الإنسان، الذي قدَّم القربان للإيمان... هنا ماركيز!

عادت الحياة لمسارها الطبيعي بالنسبة لماركيز عندما عادت الشمس للسماء معلنة عن بداية يوم جديد، الحياة بهذا المعنى هي تلك الوحدات المتصلة بالزمن، المحدودة بواسطة الأحلام، والمرهِقة للإنسان أينما كان، وكيفما سيكون، لهذا من الصعب أن يتنبَّأ ماركيز بما سيحدث له خلال سيره على طريق الحياة، فيكون قد قطع مسافة فكرية طويلة بالمقارنة مع جيله الذي لا يزال تائها بين فضاءات الفكر وتفاصيل الواقع.

يؤمن الأستاذ ماركيز بما يُطلق عليه البشر لقب الفلسفة، وهي الميدان الذي يجمع كافة أطياف التفكير في قالب واحد، يتعدَّد، يتَّسع ويبقى رحبا أمام الجميع دون استثناء، لهذا نجد بأنَّ التفكير هو المرجعية الأولى لكلِّ إنسان يتطلَّع إلى معيش أفضل لبني قومه، لمكانة أكثر انفتاحا لوطنه، ولصورة أثرى بكثير مما هي عليه، إن ما تحدَّث عن الأرض التي يوجد عليها.

الدكتور مزوار محمد سعيد

للفكرة قيمة لا تضاهيها قيمة أخرى، هي الرباط الذي يوصل الفرد بما لديه من أماني، وعند إنزالها إلى الأرض، حينما تقع بين فكيْ الامتحان الذي يخضع كليا للراهن وشروطه، تعيد الفكرة تعديل خصائصها لتتكيَّف مع بيئتها الجديدة، فتقود صاحبها إلى آفاق لم يكن يحلم بها في الأمس القريب.

لقد جعلت مهنة التعليم من ماركيز سببا للبحث في الأفكار بشكل دقيق، فأن تصبح مدرِّسًا للغة الاسبانية لصغار القراصنة، فهذا معناه أنَّك صرتَ مرجعية وهُوية بالنسبة للأجيال، لقد أصبحتَ في مقام المؤثِّر الذي يصنع القيمة في نفسيات جيل ليس له من أمثلة سواك، وهي مسؤولية رهيبة أحسَّ بها الأستاذ ماركيز يوم وقف للمرَّة الأولى أمام هؤلاء الصغار بمئزره الأبيض، ملقيا عليهم أولى كلماته.

التعليم هو التعريف بالحياة أو بأساليبها لبعض البشر، وهو المصنع الأوَّل الذي ينتج الإنسان، بحيث يرتقي المعلِّم كما يرى ماركيز إلى مرتبة الموجِّه الأبدي، فنحن لا ننسَ المعلِّم الذي درَّسنا لأوَّل مرَّة، ولا ننسَ الكثير من المواقف التي حدثت لنا في سنواتنا الأولى على دروب الحياة، وخاصة تلك المواقف التي حدثت بين أسوار مدرستنا الابتدائية، أين تعلَّمنا الحروف، الأرقام وكيف نردُّ التحية وقيمة مبادرتنا بالسلام، هذا ما يجعل ماركيز يشعر بتلك الرهبة حدَّ الخوف مِن كلمة أستاذ، فهو يعرف مدى تأثير هذه الكلمة على تلاميذه الصغار.

يتقن ماركيز فنون الأفكار، ولكنَّه لا يزال بعيدا – كما يعتقد – عن مركز بلوغ مكانة "تبليغ هذه الأفكار"، فهذه القدرة لا يمتلكها سوى القليل من الأساتذة، ولا يكتسبها المدرِّسُ سوى ببذل جهد لا سبيل لوصفه، لشدَّة وقع وكثرة التضحيات التي تحفُّ مساره الرائع، الأمر مكلف معنويا وروحيا بشكل عميق، لهذا أن تجد أستاذا كماركيز يحاول بجهد مضاعف الارتقاء إلى مكانة كهذه، فإنَّك محظوظ جدًّا.

الإنسانُ هو فكرة، هذا ما وصل الأستاذ ماركيز إليه، حيث يقضي الفرد على الأقل ربع عمره على مقاعد الدراسة كمتعلِّم، ثمَّ ينطلق إلى الحياة كممارس أو متدرِّب، وهي تفاصيل للجوهر الأم، ألا وهو اكتساب المعرفة، وبعيدا عن تلك النظريات التي حدَّثتنا عنها الحضارات القديمة من الهندية إلى الصينية إلى المصرية القديمة وغيرهم، فإنَّ

الدكتور مزوار محمد سعيد

الإنسان كما ورد لدى المسلمين هو متعلِّمٌ دائما، ولا ينقطع هذا التعلُّم إلاَّ بدخوله القبر، لهذا نجد الأستاذ ماركيز يعتنق المقولة القائلة بأنَّ الحياة مدرسة.

مَن يحرم أطفاله من التعلُّم في أيِّ مستوى من التعليم، فإنَّه يحرمهم من جَمال الحياة ورونقها، الحياة لا ترتبط بالمعطيات البيولوجية بقدر ارتباطها بالوضعيات والمقامات الروحية الباطنية، والجسم بلا روح هو أداة آلية بلا فائدة، هذا ما جعل الأستاذ ماركيز يحترم ما يقوم به بشكل رائع للغاية.

"إنَّ التمييز بين الفضيلة والرذيلة لا يمكن أن يبحث في الدرجة التي فيها يتَّبِع المرء قواعد معيَّنة، بل يجب بالأحرى أن تُبحث الفضيلة فقط بكيفية خاصة للقواعد، أي في علاقتها بالقانون. بعبارة أخرى إنَّ المبدأ المعروف جيِّدًا (مبدأ أرسطو) إن الفضيلة وسط بين رذيلتيْن مبدأ كاذب" (كانط، المعنوي الفيزيائي، الطبعة الإنجليزية – 1996م، ص: 203).

على هامش قراءة ماركيز لجريدته اليومية الصادرة بالإنجليزية – المستقلة – طبعا على صفحات النت، قرأ هذا الأستاذ بالصدفة هذه العبارة التي استهلَّ بها أحد كتَّاب أعمدة الرأي في هذه الجريدة العريقة مقاله، فانتبه إلى أنَّ الكاتِب يعرِّجُ على "الكلب" كانط ليصل إلى "العاق" أرسطو، مشيرا بواسطتهما إلى نواة الأزمة الحداثية التي تعيشها الحداثة التي صدَّع رؤوسنا وأهلك عقولنا الإعلام بالترويج لمميزاتها، التي تَعِدُ ضعاف النفوس مِن القراصنة بجنَّة على الأرض، تجعل الفقير سعيدا والثريَّ يعيش فوق بساط السندباد الساحر.

تلتقي فكرة الفضيلة لدى ماركيز بأفكار الفيلسوف المغربي طه عبد الرحمان حول الأخلاق، فالفضيلة في هذا السياق هي الأخلاق كما عبَّر عنها ستيفن كوفي على أنَّها مبادئ وأفكار لا تحتاج إلى برهان وصالحة لكلِّ زمان ومكان، ويضيف ماركيز على هذا أنَّ الفضيلة هي ما تطابق مع تلك الراحة النفسية التي تسري في الروح الإنساني عند قيام أحد أبناء البشرية بإنجازها طوعًا.

ماركيز

الجزءُ الثَّانــي

الدكتور مزوار محمد سعيد

لطالما كان ماركيز حياديًا، لكنَّه في حالات تحقيق الفضائل على أرض الواقع لا يكون حياديا أبدا، ومستحيل – إن كان هناك مستحيل – أن يكون السيِّد ماركيز على الهامش عندما تحلُّ ساعة إبداء آرائه في القضايا الأخلاقية الكُبرى، مع احتفاظه بالقليل مِن وسطيته المعهودة عندما يحاول الاتصاف بالقليل مِن الانصاف عبر الاتكاء على بعض الجوانب الإنسانية فيه.

تمرُّ المنظومة الغربية كما سبق وأشرنا بأزمة الحداثة (modernity crisis) التي انقلبت على أهلها بتجريد الإنسان مِن إنسانيته، بل وإيقاعه بشكل مدروس ومخطط له في حُفَرٍ وجودية لا سبيل لتخطيها إلاَّ بالعودة إلى روحانيات الديانات على اختلافها، خاصة السماوية منها، بهذا المعنى فإنَّ الفضيلة التي تنبع مِن القيم الدينية والنصوص المقدَّسَة هي المرجعية الآمنة لروح ماركيز وإخوته مِن أبناء الإنسانية، ولكن! تلك العودة إلى الديانات معناه في المجتمعات الكاثوليكية على سبيل المثال لا الحصر، عودة إلى تسليم مفاتيح السلطات الأرضية مِن طرف أصنام المال والأعمال لتماثيل القساوسة والرهبان، وهنا تكمُن المشكلة التي تتعاظم بشكل مستفزٍّ لضمير ماركيز ورفقائه مِن النبلاء.

ليست صدفة أن يحكم ألمانيا حزب ديني يرفع شعارات المسيحية ليؤسس لمنظومة جرمانية اجتماعية وثقافية مبنية على مبدأ "التكافل" الاقتصادي، في تناقض صريح لأهم أركان الحداثة الأوربية ألا وهو الرأسمالية، وليست ضربة حظ أن تحاول الدول "اللبرالية" مثل فرنسا، إيطاليا، اسبانيا والبرتغال إعادة إحياء المبادئ الرومانية القديمة عبر إنشاء والتعصُّب في التمسك بهذا الاتحاد الأوربي من أجل العودة إلى الهيبة المعنوية التي كانت توفرها المظلة لاتينية العريقة، ولا هو مشروع عشوائي سير بريطانيا على خطى جماعة "المطهرين" البروتستانتية عبر فك الارتباط بأوربا القديمة، كلُّ هذا في اعتقاد ماركيز محاولات لصد ارتدادات الحداثة الحيوانية قصد الإبقاء على بعض بقايا أنقاض الفضيلة الشرقية التي تبنتها أوربا في صورة أثينا القديمة.

لم تشهد البشرية وبالا على الفضيلة ومن خلفها الإنسانية كلّها مثلما شهدته في زمن الحداثة بدءً من الثورات الأوربية ضد الديانة المسيحية بتبرير اقتلاع ظلم رجال الكنائس، إرضاء لثلَّة مِن المتعطشين للسلطات، هؤلاء الذين عملوا على البقاء في سدَّة

الدكتور مزوار محمد سعيد

الحكم وتعزيزه عبر نشر العبودية بواسطة شعارات العولمة في كافة أقاصي الأرض، متناسين بأنَّ الضمير لا يُمكن تزويره، فهو فطرة إلهية تقود بنور الكلمات الإنسانية نحو الفضيلة في كافة الأزمان والأوطان.

تنهَّد ماركيز بعمق، ثمَّ أغلق حاسوبه، وأطلق لعيونه الجميلة العنان نحو نافذة غرفته المطلة على السلالم، وهو مرتاح البال، لأنَّه يؤمن بما جاء على يد الأنبياء، النبلاء وحتى الفلاسفة والحكماء، هو مؤمن بالإنسانية على طريقة كونفوشيوس وتشي جيفارا.

يستيقظُ ماركيز منزعجا بسبب صوت مزعج للغاية يُحدثه أحد القراصنة مِن جيرانه الأغبياء، فالقرصان على أرض الجنَّة ما وراء البحر يدَّعي الحداثة، ليقلِّد أوربا في كلِّ شيء له من السوء نصيب، لكن من المستحيل أن يستقي القراصنة الاحترام فيما بينهم مثلما يحترم الأوربيون حريات غيرهم، باختصار: القرصان وإن لبس بذلة وربطة عنق على الطريقة الأوربية، فإنَّ تصرفاته تبقى في تصنيفها كتصرفات الكلاب المصابة بداء الكلب، أي يبقى حيواني التصرُّف دائما، تغلب على طباعه طبيعته الغريزية المتوحشة، وقلَّة الأدب أو انعدام الاحترام هو أقلُّ ما يُقال في حقِّ هذه المخلوقات التي يعتبر ماركيز الحيوانات أشرف منها بكثير.

بقي القراصنة في وضعهم المتوحش رغم ارتدائهم لمظاهر الحضارة، هذا ما يراه ويلمسه ماركيز في كافة ما يصادفه يوميا، بل إنَّ بعضهم قد تجرَّأ على الله سبحانه وتعالى، فتجده يتكلَّمُ باسم الدين، يعتلي المنابر باسم الدين، يقضي حاجاته ومصالحه الشخصية باسم الكتب المقدَّسة، ويظلم الناس أيضا باسم هذا المقدَّس الذي جعله هؤلاء بمستوى مناديل التنظيف حسب اعتقاد ماركيز، وهذا لم يحدث حتى في أوربا """الكافرة""" كما يقولون.

في بداية عصر النهضة الأوربي، وفي عزِّ الصراع بين كنيسة القرون الوسطى والتنويريين، ظهر أبو الحداثة الأوربية رونيه ديكارت في قمَّة جلاله، عندما أرجع الدين لله سبحانه وتعالى، مبقيا على الاستدلال والاستقراء بين صفحات قواميس البشر فقط، حيث قال: "إنَّ الحقائق الموحى بها والتي تهدي إلى الجنَّة هي فوق فهمنا، ولم يكن لي

أن أجرؤ على أن أسلِّمها لضعف استدلالي" (ديكارت رونيه، المقال في المنهج – الطبعة الفرنسية، 1985م، ص: 172).

لا يفرِّقُ الأستاذ ماركيز بين "جاره" الذي يقوم بكل ما في وسعه لإزعاجه، بسبب مَرَض – باتولوجي ينخر حياته البائسة، وبين مَن يستغلُّ الحالات الإنسانية التي أمر بها الدين لتتآلف القلوب فيما بينها، فيحوِّلها عن مقاصدها ليخدم أغراضه الشخصية الأنانية، فكلاهما في الكفَّة ذاتها وإن اختلفت الألوان والمسميات.

يزحف ماركيز باتجاه المطبخ مغرِّدًا كالعصافير في قلب الربيع، محاولا تفتيت ذلك الصوت المزعج وإضفاء القليل من المرح على بداية يومه الذي يبدو قاتما، يجلس لتناول فطور الصباح، وهو يفكِّر في سلسلة "الملائكة" التلفزيونية، التي تروي قصة شباب أوربيين يقضون عطلتهم في المغامرات وزيارة الأماكن الساحرة، بينما هو محروم حتى مِن قراءة أحد كتبه بهدوء، لأنَّه يعيش بين قراصنة – يعتبرهم الأوسخ في تاريخ الكوكب منذ بداية الحياة، لكنَّه سرعان ما يستعيد توازنه، يعود إلى غرفته، ويحاول الإبحار في بحر التفكير والفكر بين نصوصه المختلفة، متناسيا ما يحدث بجانبه، مِن مبدأ أنَّ القافلة تسير و.... الخ.

في الحياة الكثير من المطبات والابتلاءات التي يجب على الفرد فهمها قبل التعامل معها، ولا سبيل له للوصول إلى تلك القيمة المعرفية النقية، سوى بالمرور على كافة العوائق، وهذا واضح بالنسبة لماركيز، لكن أن يعيش الإنسان بين قومٍ دينهم وديدنهم هو الحقد والعمل ليل نهار على إفساد حيوات غيرهم، بكلِّ الطرق والطرائق، بكافة المعطيات والوسائل، فإنَّ الأمر يزداد ويعظم في عمق الروح ليصل منطقة الجهالة، تلك التي يقاتل ماركيز من أجل الابتعاد عنها.

كلَّما صادف الأستاذ ماركيز موقفا يعبِّر عن مدى وساخة القراصنة، تذكَّر موقف نبيَّ الإسلام، محمد عليه الصلاة والسلام، وهو يمشي مع أصحابه ومن اتبعه في شوارع مكة، بينما قومه وأقرب الناس إليه يرمونه بالأشواك والحجارة وكلُّ ما يصل إلى أيديهم وعقولهم ويكون مؤذيا لجسده الشريف، ومع ذلك صبر وانتصر بصبره الجميل.

الدكتور مزوار محمد سعيد

لا يختلف جار ماركيز المزعج عن حمَّالة الحطب، بل هو أبشع، صَبْرًا ماركيز، فالقراصنة هُم ابتلاؤك الأعظم!

وقف ماركيز ذات صباحٍ مشمسٍ وجميل أمام خزانته الجميلة ذات الزخرفة الرومانية العريقة والمغلَّفَة بالكثير مِن المرايا الكبيرة، متأمِّلاً ملامح وجهه الأبيض ذا اللحية التي يعلوها الشيب في مقدمتها، وراح يُعاتب نفسه على أخطاء لم يقترفها وبعضها اقترفها سواءً عن دون قصد أو متعمِّدًا، لقد ورث هذه العادة عن جدَّته كريسينا رحمها الله، كانت تجلس لساعات وقت الظهيرة تحدِّثُ نفسها عن الكثير من الأمور اليومية، مَن يراها ولا يعرفها مسبقا، يشعر وكأنَّه أمام مجنونة تحدث نفسها، ولكنَّها كانت رحمها الله تمام العقل، فبذلك التصرُّف أثناء خلواتها وعزلتها الطوعية، كانت تفضفض عن نفسها، لأنَّ أرض الجنَّة ما وراء البحر، لا تحمل أطباء نفسانيين، ومعظم من يدَّعي ذلك، لا يثق فيهم القراصنة، لأنَّهم لا يعرفون ما معنى "الأسرار المهنية"، قد تحكي مصابكَ لهذا الطبيب النفسي لساعات، وقبل أن تصل بيتك، تكون قصصكَ قد ملأت منطقة البحر المتوسط كلَّها؛ لهذا حافظ ماركيز على الاعتراف بأخطائه لمرآته فقط، فهي أهل للثقة أكثر من أطباء القراصنة النفسانيين!

"ليس لديَّ معرفة عن كيف أكون، بل لديَّ معرفة عن كيف أظهر لنفسي فحسب" (كانط، نقد العقل المحض، الطبعة الألمانية، ص: 141).

أن يقف ماركيز أمام المرآة فهذه عادة جعلته يتراجع عن الكثير من الزلاَّت، هي قيمة رائعة لدعم الروح بالكثير مِن الأناقة، هي قدرة لا مثيل لها لرفع الإنسان إلى مراتب عالية، تجعله قادرا على فهم العالَم بشكل أكبر، لأنَّ المعرفة تصبح بلا قيمة وبسعر التراب عندما لا يتعلَّق الجزء الأكبر منها بالروح الفردي الخاص بالمتأمِّل ذاته.

تِلك الوحدة التي يمرُّ على تقاطعاتها "الكِبَار" في هذه الحياة، هي الدعامة الأساسية لهم أثناء اشتداد العواصف الروحية الرهيبة، هُم يستقون القوّة لتجاوز الصعاب مِن آبارهم العميقة، التي حفروها في أعماق أنفسهم بأناملهم وبصرخاتهم التي تنتج عن كافة لحظات آلامهم، فعندما يبتسم النبلاء في عزِّ المآسي، فتلك الابتسامات ليست للسخرية مِن قدراتهم، بل هي تعابير عن مواجهة ما يسبب لهم المشقَّة والشَّقاء معًا.

يعيد ماركيز تدوير شريط حياته منذ الطفولة أحيانا، ويقف على الكثير من المواقف، يبني أحكاما ويعدِّلُ أخرى، يسترجع لحظات البسمة كما يستردُّ أركان الصراخ، ويعالج روحه بمفرده ليستطيع إنهاء المسير بشكل متوازن، فكلُّ الديانات السماوية، تُلزمُ أتباعها بمحاسبة أنفسهم قبل أن يُحاسبوا غيرهم، أو يعمد غيرهم إلى محاسبتهم؛ فعلا هي مهمة لا يمكن لأيٍّ كان أن يقوم بها على أكمل وجه.

تنهَّد ماركيز بعمق، أغمض عينيْه للحظة، شعر بذلك الروح يسري في كافة أطرافه، اشتاق لمقطع من طفولته، عندما كان يعود من المدرسة ركضا بين الحقول باحثا عن مساحة ظل تصنعها أشجار الصنوبر العملاقة هربا من أشعة الربيع الحارقة، شعر بأسف عميق، بشوق رهيب لتلك الأيَّام التي شهدت قسوة الطبيعة عليه، لكنَّه مدرك هو قبل غيره، بأنَّ قسوة الطبيعة أرحم بكثير عندما نقارنها بقسوة البشر.

عاد للواقع بعدما فتح عينيْه ثانية، واقع القراصنة المؤلِم والمرح في الوقت ذاته، ازعاج الكلب المسعور الذي يسكن بجانبه، أحكام العائلة مِن حوله، مراقبة الحاقدين له في كلِّ خطواته، وحب بعض المقربين منه له، هو يعيش تناقضات رهيبة بين ما يطالعه على صفحات الصحف والكتب، وما هو يراه ويلمسه من حوله، يعيش بين تجاذبات مختلفة من حيث الطبيعة والتكوين بشكل تام، هذا ما يجعله أحيانا يعترف لمرآته بأحلامه التي تحققت وأوهامه التي لم تتحقق بعد، لا يزال متمرِّدًا، لا يزال يحمل بداخله تلك الموجة الجارفة التي بإمكانها جرف كلَّ ما يحيط به دون مبالاة.

هناك صفات لا يكون القرصانُ قرصانًا سوى بالتحلِّي بها، وهي الخيانة، الكذب والفجور؛ وعليه فإنَّ الجنَّة ما وراء البحر التي تعجُّ بالقراصنة، هي أرض مملوءة مِن بابها لمزرابها بالخونة والكذّابين والكاذبين إضافة إلى الفاجرين، وهذا بالضبط ما يراه ماركيز في كلِّ ثانية مِن حياته على هذه الأرض دون غيرها.

صادف ماركيز أثناء دراسته للثقافات الكثير من المفكِّرين الذين حاولوا التنظير للمثالية، على أنَّها مصدر العَدَم قبل أن تكون مصدرا للتواجد والموجود على سبيل سواء، وهذا ما جعله يضع صفات القراصنة هذه في ميزان هذه المثاليات، لعلَّه يستنبط منها ما يجعله يفسِّر الكثير مِن الصفات الناتجة عن هذه الثلاثية المهترئة، تلك الصفات التي تتخذ مِن

الدكتور مزوار محمد سعيد

الأنانية قِبلَة وإماما، وعليه فإنَّ "المثالية التي أفهمها على أنَّها مثالية مادية هي النظرية التي توضح أنَّ وجود الموضوعات في المكان خارجيا إمَّا أنَّه موضع شكٍّ، ومِن ثمَّ لا يمكن البرهنة عليه، وإما أنه كاذب ومحال، المثالية الأولى هي مثالية ديكارت، والمثالية الثانية مثالية باركلي الدوغما-طيقية، التي تعلن أنَّ المكان وكلَّ الأشياء التي يكون المكان شرطًا لها ينفصل عنها هي أمر مستحيل في ذاته؛ ومن ثمَّ فإنَّ الأشياء في المكان تصبح مجرَّدَ خيالات" (كانط، نقد العقل المحض، الطبعة الألمانية، ص: 416).

إذن فإنَّ ماركيز لم يجانب الصواب ولا المقبول عندما وضع القرصان كجوهر سخيف مملوء بالتفاهات التي تقوم على أساسات الخيانة، الكذب والفجور، وهي صفات تقودها الأنانية إلى نهاية هذه الكيانات السرطانية على شواطئ البحر المتوسط، مع أنَّه يعلم مسبقا أنَّ لكلِّ واقعة توقيتها المضبوط، بينما تبقى للطبيعة قوانينها الصارمة دائما، تلك التي لا يستطيع أيُّ قرصانٍ خرقها، مهما بلغ مِن المكر والجبروت، ولا حتى ماركيز نفسه قادر على القفز فوق سياقات التاريخ وأحكام البيولوجيا.

العودة إلى المثالية لدى القراصنة هي مِن وحي الخيال الذي ينشأ في أوربا ويلقي بفضلاته على شمال أفريقيا، حتى يتعفَّن الجوُّ الثقافي فيقوم بخنق المعطى الأخلاقي بروائحه النتنة، وهذا بالذات ما يحدث على هذه الأرض، فقد مات الفعل الإنساني إن لم يصبح نادرا، وتمَّ استبداله بالحيوانية الغريزية بشكل سافر، وهو ما نتج عنه قلبٌ تام لكافة الأنظمة العُرفية، حتى صار الأمر محكوما بالمزاج الذي يسيِّر زعماء القراصنة وكافة البسطاء منهم، تحت شعارات مختلفة لكنَّها تدور في فَلَك السخافة المفرطة والواضحة للجميع.

ما يخرجُ مِن الحقول المغلقة بشكل كامل، سيكون بطريقة حتمية خاضعًا لشروط هذا المغلق، وهذا ما يحتِّم على طالبي الانفتاح مِن إخوان ماركيز وزملائه من طائفة النبلاء، أن يبذلوا جهودا أكبر حتى يصلوا إلى مستوى الصفر، وبالتالي يأخذوا كافة التوجهات الناتجة عن تلك الصفات السالفة الذكر، بعين الاعتبار أثناء تخطيطهم لما هو قادم، وهذا ما يحدِث ذلك الشرخ بين النبلاء والقراصنة، مكوِّنا صراعا يبدو خالدا بين جانبيْن متناقضيْن إلى درجة التضاد والتنافر.

الدكتور مزوار محمد سعيد

ماركيز يصون الأمانة، ويحمل صفة الاستحياء في روحه، هو لا يزال حتى عقده الثالث من العمر يشعر بارتفاع حرارته واحمرار وجهه عند وقوعه في مواقف محرجة، كما أنَّه أبعد ما يكون عن الفجور سواء في لحظات غضبه النادرة، أو في فترات استيائه الكثيرة، إضافة إلى هذا، أشدُّ ما يمقت على وجه البسيطة هو كلُّ ما له علاقة بالكذب ومشتقات هذا الفعل الذي يعتبره الأستاذ ماركيز السبب الأساسي في خراب أرض القراصنة.

هذه المعطيات تشرح سبب عدم إمكانية تصنيف ماركيز في خانة القراصنة، رغم ولادته على أرض الجنَّة ما وراء البحر، ونبوغه بين أبنائها القراصنة، فمعدن النُّبلاءِ لا يتبدَّل ولا يتحوَّل، مَثَله في ذلك كمثل الأحجار الكريمة الثمينة.

يفكِّر ماركيز في النهايات أغلب الوقت، يسير في توقعاته كما يساير إمكانياته، يجول بذهنه على بساط الواقع طلبا للراحة النفسية، فالروح حسبه هو معطى لا مادي قابل للتغذية من التعاليم والأحداث على حدٍّ سواء، وبهذا يصبح من الجميل أن يعتنق الفرد الإنساني ذلك الغَرَض المعرفي النفساني الذي يحدد النهاية؛ نهاية الحياة.

المقصود بنهاية الحياة في قاموس ماركيز ليس ما يفهمه القارئ لهذه الأسطر على أنَّها نهاية الكون على وجه هذا الكوكب، لأنَّ ماركيز يحدد هذا المفهوم بمعنى نهاية حياته هو كفرد، كشخص، كوحدة محايدة ومشاركة في الوقت ذاته، تعبِّر عن كافة الانعكاسات الوجودية من حوله، ليصبح كونا بمعنى من المعاني، كما جاء عند الشيخ الأكبر. "يجب أن نفكِّر في نهاية قصوى للواقع نتقدَّم منها ووفقا لها نستطيع أن نقيس الأشياء" (كانط، قراءة في فلسفة الدين – الطبعة الإنجليزية، ص: 350).

ما يحاول ماركيز إنجازه هو محاولة لفهم ذاته الذي يعتبرها نوعا من العوالم ذاتها، وبهذا هو يجتهد في إدراك واقعية هذه الذات لأنَّه يفترض بأنَّها تعبِّر عن واقعية المواقع الثابتة والمتحرِّكة بشكل متكامل، وبالتالي فإنَّ المادَّة والروح على حدٍّ متساوي يصبحان سلسلة من الرؤى العالية التأثير على القيم التي يحملها ماركيز بشكل مبالغ فيه، هذا ما يجعل هذا الأستاذ يحاول بشكل دائم الأخذ بالأسباب المختلفة لصياغة ما يفترض هو دون غيره بأنَّه عالمه الخاص. الإنسان الذي يعمل على بناء ما يخصه هو فرد يعمل

الدكتور مزوار محمد سعيد

على إقامة مساحة جديدة، فضاء مميَّز، وبالتالي هو نداء خفيٌّ للتسليم بتلك القدرة التي تقبع بداخل كلِّ إنسان، وتدفعه بشكل من الأشكال إلى فرض قواعد وشروط على الواقع ذاته، هي عملية ذهنية تتقدَّم نحو فهم بالحد الأقصى، وهضم ما هو موجود أو ما يميِّز الفرد بين ما هو موجود وما هو جديد، وبالتالي يستطيع إقامة ما يعتبره فيما بعد السبَّاق لإقامته؛ يعترف ماركيز لنفسه بالأخطاء، لا ليجلِدها بل ليرفعها نحو الكمال – والكمال لله سبحانه – هو يحسِّن مِن حياته، لكنَّه يبدأ بمواطن الألم ليصنع مساحات أمل جديدة، هو يبني على الخطأ ما يراه صوابا، ويرتفع بالأسباب ليصل للنتائج مهما كانت هذه الأخيرة متأخِّرَة، وبهذا يصبح فهمه للقضايا الواقعية أمورا بديهية للغاية. روعة الأيَّام في ذهن ماركيز تتجلَّى أمامه عندما يأخذ حمَّامًا ساخنا، بعدها يصلي خضوعا لخالق الأكوان جميعا، ويعبُر الجسور الثقافية باتجاه الغرب أو نحو الشرق بشكل يدعو إلى الغرابة على نحو لا مجال لتفاديه، هو مدمن كتابة وشارب للحبر بشكل جنوني يصل بروحه لمستوى المجون الثقافي الذي لا يستطيع مسايرته فيه سوى المجون ذاته؛ يجلس ماركيز إلى طاولته في المطبخ، يرفع صوته بالضحك الهستيري وهو يسمع آخر فلول القراصنة وهُم يتفاهمون قصد إفساد يومه الرائع، يسامر روحه عندما يساعد ذاته على تخطِّي الحُجُب النفسية فيبتسم ماركيز في وجه مَن يعتبره شخصا بائسا، بعدها يعود إلى جنَّته الفردية، تلك التي بنى أعمدتها من التفكير الجاد؛ ليس للإنسان بصنف ماركيز مكانٌ بين القراصنة، وعليه في الوقت ذاته أن يحمل بذور تمرُّدِه مِن جديد، لينحت صخر طريقه بشكل أكثر جدية، فيقوم ببناء صروح على طول المسار نحو نجاته، تلك التي يؤمن بها ماركيز بشكل عميق للغاية، هو يعلم قبل غيره بأنَّ ثمن اختياراته هذه سيدفعها وحده، وهذا الثمن سيكون أجزاء من روحه، لكنَّه في عمقه سيحاول وسيقوم بالمغامرة، هو معتاد على تحدي الخطر؛ ماركيز.... أيُّها الماركيز عليكَ أن تمضي نحو المرحلة التالية، لأنَّ العدَّاد لا يتوقَّف عليكَ أو بكَ، أنت تعلم هذا؛ ولكنَّ الله سبحانه وتعالى هو أعلم منك بالتحديد!

خَرَجَ مَارْكَيز إلى الشرفة ليطلَّ على شارع منزله الكئيب على مرِّ العصور والأزمان، فوجد قطَّ العائلة الهادئ مسترخي يأخذ حمَّاما شمسيا رائعا، هذا المظهر لهذا الحيوان الأليف أغرى ماركيز ليطيل يده ويمسح على فرو هذا القط الأصفر الممزوج بالبياض،

وبينما هو في قمَّة الاستمتاع بهذا الفعل اللطيف، خطر بباله سؤال اللامتناهي، بخاصة عندما لاحظ كثافة شعر القط الذي يبدو للناظر إليه بأنَّه غير محدود أبدا؛ حينها سأل ماركيز نفسه: لماذا يمضي الوقت بلا توقُّف؟

"نحن لا نستطيع أن نفهم اللامتناهي؛ وبالتالي لا نملك عنه سوى فكرة لفظية" (كولينز جيمس، الفلسفة الحديثة – الطبعة العربية، ص: 99).

اللامتناهي عادة ما يرتبط بالزمن الذي يسير بلا توقُّف، وهو لحدِّ اليوم لا يزال سرًّا عظيما مِن الأسرار التي تتجدَّدُ دائما ودون انقطاع خلال أعمار كافة الأجيال على اختلافها واختلاف أزمنتها التي لطالما عبرت بلا عراقيل، عبر السلاسة المطلوبة لذلك، هذا ما حيَّر ماركيز دائما، خاصة عندما تبادر إلى ذهنه سؤال: لماذا يمضي الوقت (Pourquoi le temps passe)؟

الزمن – الوقت هو الحياة، الأيَّام معدودة ومحدودة بفواصل، لها بداية – ولادة، ولها نهاية – وفاة، وما بينهما وحدات كرونولوجية لا تتوقف مهما فعل الفرد الإنساني، وهذا ما اِعتبره ماركيز أوَّل ركن للمساواة بين البشر، فهُم على اختلافهم في الكثير من المراتب والمثالب، إلاَّ أنَّهم متساوون أمام العبور على طاحونة الوقت التي تجتهد في سحق أيَّامهم بلا شفقة أو تريُّث.

عالج ماركيز هذه المسألة – مسألة الزمن – من مبدأ الزمان الذي يشبه إلى حدٍّ كبير الحبال التي نستعملها يوميا تقريبا لشدِّ أغراضنا، وبالتالي فالسائر خلال رحلة حياته هو كالبهلوان الذي يترقَّب سقوطه في دائرة اللهب أو على تلك النوابض الاسفنجية في أيِّ حين، وهنا يختلف طول وقصر أعمار البشر، إذ ننتقل مِن السرِّ العظيم لمرور الوقت بلا توقف أو انسداد، إلى سرٍّ أعظم هو متى يحين موعد الرَّحيل عن الحياة!

الزمن هو جزء من الزمان، وهو خارج طوع الإنسان وإرادته، هذه هي الفكرة التي طرقت عقل ماركيز عندما أغلق باب الشرفة بعدما عاد أدراجه نحو غرفته الباردة مِن أحد أيَّام ديسمبر الدافئة على غير العادة، تاركا ذلك القط على هواه يسامر جسمه بلسانه

الأحمر المائل إلى الوردي، وعليه فإنَّ الإنسان ككائن حيٍّ يتشارك مع كافة الكائنات الأخرى هذا الإحساس بالأزمنة مهما طال عُمرها أو قصر.

فتح ماركيز حاسوبه وراح يبحث عن سرِّ الحياة في علاقتها بالزمن، لتنهال عليه الكثير من الدراسات بمختلف اللغات، تلك التي تشرح موضوع ما يسمى بِـ: مشروع اكسير الحياة، طبعا اعتبر ماركيز هذه المواضيع ضروبا من ضروب الهَبَل أو وهما من أوهام البشرية التي تعمل دائما على الوصول إلى طريقة تبقيها بعيدة عن مذاق الموت.

يُدرك ماركيز بأنَّه يوما ما سيموت، وهذا هو اليقين بالنسبة إليه، لهذا هو يحاول قدر المستطاع أن يشبع رغباته في الحياة، شريطة ألاَّ يزعج أحدا، فهُو حرٌّ ما لم يضر، لأنَّه يعتبر التوازن والانسجام أهمُّ الأركان التي تُبنى عليها السعادة في أيَّامه؛ أغلق الأستاذ ماركيز حاسوبه بلطف أيضا، لبس سترته البنية وخرج من غرفته متجه نحو غرفة الجلوس ليفتح جهاز التلفزيون طامعا في وقت هادئ، منصاعا لرغباته التي لا حدود لها في سماع ومشاهدة الأخبار كلَّ ساعة عبر الوسائط الإلكترونية المختلفة.

بعدما شغَّل التلفزة؛ راح ماركيز وهو مستلقي يفكِّرُ في العلاقة بين زمن البث على الهواء مباشرة والزمن الطبيعي الذي يعيشه كلٌّ واحِدٍ منَّا! هنا الفرق إذن: فالزمن الذي يقضيه الصحفي على الهواء مباشرة هو المتناهي، زمنه الطبيعي يشارك زمن البث في التناهي، ولكنَّ الزمان سرمدي لا نهاية له.